خاتمة

بعد هذا الربط بين مشاهدات العلم الحديث وما ذكره الله في القرآن أو ما حدَّث به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة سنة، هل لنا أن نجني بعض ثمرات هذا التصور الجديد واستيعاب المشاهدات الكونية الحديثة.

أولًا عن الجنة:

يقول الله في سورة النجم الآيات (١٣، ١٤، ١٥، ١٦) "وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ﴿﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى."

ومن حديث المعراج الصحيح في البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن حبان بسندهم عن مالك بن صعصعة:

"ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستَفتحَ جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قال: مرحبًا به، ونعمَ المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّمْ عليه. قال فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثمَّ قال: مرحبًا بالابنِ الصالح والنبيِ الصالح. ثم رُفعَت لي سِدرةُ المنتهى، فإذا نَبقُها مثلُ قِلالِ هَجَر، وإذا وَرقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة. قال: هذه سِدرة المنتهى."

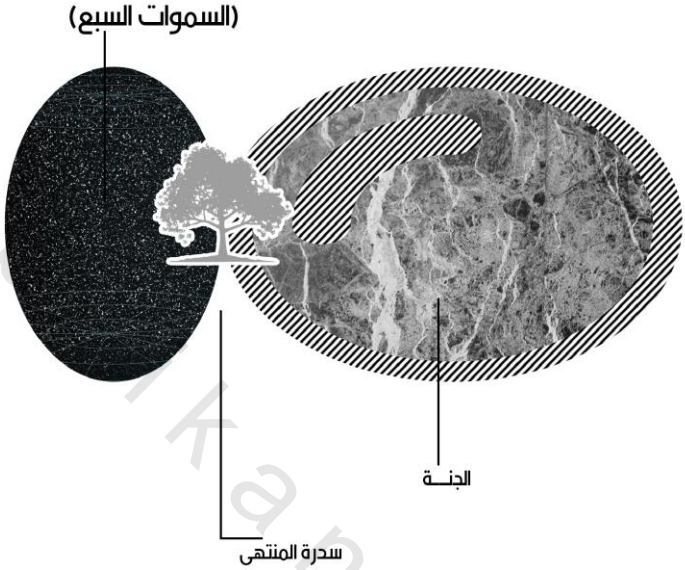

ويقول الله في سـورة ال عمـران الآيـة ١٣٣ "و سـارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعـدت للمتقـين" هذه الآية تقتضى أن حجم الجنة أكبر من حجم السـماوات والأرض وعليه فمنطقيًا تقع خارج حدودها، ثم إذا تلونـا مـن آيـة الكـرسي قول الله "وسع كرسيه السماوات والأرض" وبعـد ذلـك راجعنـا مـا سبق وذكرنا من الحديث الصحيح "ما السماوات السبع في الكـرسي إلا كحلقه ملقاة بأرض فلاة, وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفـلاة عـلى تلـك الحلقـة" ووضـعنا نصـب أعيننـا تصـور تنظـيم

السماوات السبع كما شرحناه وكذلك عبور الناس على الصراط إلى الجنة، نجدنا نرى السماوات السبع بحجمها المهول مجرد حلقة ضئيلة من كِيانٍ شاسع وهو الكرسي وبجوارها حلقة أخرى أكبر منها وهي الجنة والله أعلم بما يحتوي الكرسي غير السماوات والجنة.

أريد أن أؤكد أن علماء الفيزياء الكونية مجمعون على أنه خارج إطار الكون المنظور (السماوات السبع) لا معنى لقوانين الفيزياء المعروفة ولا وجود لما يسمى للزمن، فوجود تلك القوانين مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمادة التي نعرفها وهي محدودة بحدود الكون فيعدُّ ضربًا من الجنون أن نحاول تفسير أحداث خارج إطار الكون مع جهلنا التام بكل ما يحكمه من قوانين بل وبطبيعة المادة فيه، ولذا يتفق تصور العلماء رغمًا عنهم مع قول الله في سورة السجدة الآية ١٧ "فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون" وكذلك حديث أبي هريرة في الصحيحين عن الرسول صلى الله علية وسلم قال: "قال الله تعالى، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، ومن ثم سنعتمد في هذا الفصل تمامًا على النقل دون العقل الذي سيقتصر دوره على فهم وتصور التشبيهات التي وردت في النصوص ونبني على السياق السابق والأمثلة التي وردت في الكتاب.

فنقدر الآن أن الكون المنظور "وفي تصورنا السابق هو السماء السابعة وما تحتوي" يحتوي على عشرة آلاف مليار مليار نجم وهو عدد أكبر بكثير من تعداد البشر من يوم آدم وإلى اليوم " حيث يقدره العلماء من ٩٠ إلى ١١٠ مليار نسمة"[١٣] أو حتى إلى يوم القيامة "وليكن مائة ضعف ذلك الرقم أو حتى مليار ضعف" ومع الوضع في الاعتبار أن الجنة أكبر من الكون المنظور فيسهل علينا استيعاب وتصور وتقبل الأحاديث الصحيحة عن درجات الجنة وعن المساحات الواسعة التي يكافئ الله بها المطيعين من عباده مثل:

ما ورد في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود "إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا، رجل يخرج من النار حَبْوًا، فيقول الله: اذهَبْ فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها". ذلك أدنى أهل الجنة يعطيه الله عشرة أمثال الدنيا (عشرة أضعاف حجم النظام الشمسي) فماذا عن السابقين المقربين؟ هل يجازيهم الله بأمثال المجرات التي يحتوي أي منها على مائة مليار نجم؟ نعم وهو أهون على الله فبعد علمنا بالأحجام المهولة للسماوات ندرك كم ذلك متصور وسهل بل ودقيق في التشبيه.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال "إن أهل الجنة ليتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر من الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين" هؤلاء المؤمنون المصدِّقون وليسوا بأصحاب أفضل المنازل، اللهم ارزقنا الفردوس الأعلى.

وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا "إن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فسَلُوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة". هل رأيتم كم يساعد التفكر على استيعاب تلك الأحاديث وتخيلها مما ينعكس على العمل طلبًا للمزيد من الدرجات وكم يتسق تصورنا عن السماء مع أحاديث الرسول عن الغيبيات كالجنة.

وفي المسند من حديث أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الجنة مائة درجه ولو أن العالَمين اجتمعوا في إحداهن وسِعتهم"، وللأمانة هذا حديث ضعيف، والمحققون متفقون على أن لفظ مائة في الحديثين السابقين للتكثير لا للحصر؛ لأنه في الحديث الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يقال لصاحب القرآن

اقرأ وارتقِ ورتِّل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" فدل ذلك على أن درجات الجنة أكثر من مائة ودل طبعًا على عظم فضل القرآن.

فالتدبر والتفكر في الآيات الكونية وإن لم ولن يصل بنا لمعرفة حقيقة الجنة والنار لكنه يُقرِّب لعقولنا ما ذكر من عذاب تلك ونعيم الأخرى وهو طريق متصل لا ينتهي فكل اكتشاف علمي لابد أن يقابله تجديدٌ في مفاهيمنا للغيبيات الدينية ألم تقرأ قول الله في سورة فاطر الآيتين ٢٧ و٢٨ "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها. ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴿و من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور"

فالعلوم الدنيوية التي وردت في الآيات وما على شاكلتها تُظهِر عظمة الله تعالى وقدرته في الخلق وتدفع العالم بها إلى خشية الله.

ثانيًا عن القيامة:

يقول الله في الآية ٦٨ من سورة الزمر " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ "

تحصر هذه الآية والآيات المماثلة لها الصعق يوم القيامة على من هم في السماوات والأرض ودرجنا على اعتبار أن هذا يشمل كل مخلوقات الله إلا المستَثْنَين بقول الله " إلا من شاء الله " واختلف العلماء أثابهم الله في اجتهادهم فيمَن تم استثناؤه، ولكن لم يلتفت أحد للأحاديث والآيات الدالة علي أن السماوات مجرد خلق يسعه كرسي الله "بنص آية الكرسي"، إذًا فلا بد من وجود خلق خارج حيز السماوات لا يشملهم الصعق ولا عَلاقة لهم بمقتضى هذه الآية، فالله لم يقل فصَعِق جميع الخلق، فمعرفة أن السماوات والأرض ليست كل خلق الله يجب أن ينبهنا إلى أن القيامة إنما هي حدث جلل لأهل السماوات السبع أما من هم خارج هذا النطاق فالله أعلم بحالهم ذلك اليوم أو ما قبله أو ما بعده. ولا توجد نصوص صحيحة فيما أعلم على أن القيامة تشمل كل ما خلق الله داخل وخارج السماوات، أما قول الله "كل شيء هالك إلا وجهه" "القصص ٨٨" فلا يلزمه أن يكون ذلك الهلاك محدد بيوم القيامة فلكل خلق موعده الذي يحدده له الله.

والآن هل تعارض تلك الرؤية الجديدة لحدود السماوات ما جاء في أحاديث المعراج والحديث عن بناء السماء وبواباتها؟

بالطبع لا، لأنه لا يلزم أن من يستطيع رؤية مكان ما أن يرى كل ما فيه، فالجن حولنا في الأرض ولكن لا نستطيع رؤيتهم، وعلميًا قلنا إن العلماء اكتشفوا أن أغلب مادة الكون المنظور لا نُدركها وإن كنا نعلم بوجودها (المادة المظلمة) بالرغم من أنها حولنا في كل مكان، ولكني لا أريد أن أجزم أن تلك المشاهدات في حديث المعراج من المادة المظلمة لأنه قد نتمكن من أن نرصد تلك المادة في يوم من الأيام ويتضح أنها من بنية شيء آخر من الكون ولا عَلاقة لها بتلك المشاهدات، فلا دليل على ذلك كي نفترضه ولكن الأكيد أن تلك المشاهدات موجودة ولكن لا نستطيع إدراكها.

كان هذا مجرد طَرْقٍ على باب التفكُّر في خلق السماوات والأرض عساه أن يدفع المسلمين لفتح ذلك الباب المغلق منذ مئات السنين وأن يكون نواةً لبحوث أخرى تُثمر خشية لله وتُظهر إعجاز القرآن وعلم الرسول للكثير من الآيات قرونا قبل اكتشافها.

وختامًا، اللهم إن أصبتُ توفيقًا فمن عندك، أما الخطأ فمني ومن الشيطان، أسألك أن تغفره لي وتردَّني للصواب.

" وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " النمل ٩٣.

د.طارق عبد العال الشربيني

السبت ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٧ الموافق السادس من فبراير ٢٠١٦.